
A COMPARATIVE ANALYSIS OF NARRATIVES ON THE DESTRUCTION OF BAGHDAD DURING THE MONGOL INVASION

Prof. Dr. Metin Yilmaz

Faculty Member at the Faculty of Sharia, Ahmed Al-Yusawi Turkish-
Kazakhstan International University, Turkestan, Kazakhstan

<https://orcid.org/0000-0002-9517-0592>

tahaeymen@hotmail.com; metin.yilmaz@ayu.ed.kz;

metin.yilmaz@omu.edu.tr

DOI: <https://doi.org/10.31973/331na507>

Abstract

Certain historical events have profound and lasting traumatic effects on societies, with their consequences never truly erased from collective memory. The invasion of Baghdad by the Mongols is undeniably one such significant historical event. The importance of Baghdad as the capital of the caliphate, coupled with its role as the religious administrative center for the entire Islamic region in the Middle Ages, further heightened the traumatic impact of this invasion. Indeed, even during the modern-day occupation of Iraq, there was a felt need to reference and compare it to the Mongol invasion. In this study, we will delve into the material destruction caused by the Mongol armies in Baghdad based entirely on historical narratives. We will attempt to scientifically present the value of diverse historical sources by employing historical arbitration methodologies. Specifically, the extent of the destruction inflicted upon the selected sample of Baghdad libraries will be determined through primary sources. The backbone of our study will be the accounts of eyewitnesses who directly experienced the invasion, along with the narratives provided by significant scholars and travelers describing post-invasion Baghdad. Examples of information and methodological errors that modern sources have fallen into with their one-sided narratives will be provided. Sharing the historical realities hidden between the lines with the scholarly community is our primary goal, rather than engaging in the exaggeration and populism that often characterize discussions of this historically renowned event, which holds within it many foundational assumptions.

keywords: Baghdad Trauma, Comparative Analysis, Eyewitness Ac, ,Material Destruction, Mongol Invasion.

تحليل مقارن للروايات المتعلقة بتدمير بغداد خلال الغزو المغولي

الأستاذ الدكتور متين يلماظ

عضو الهيئة التدريسية في كلية

الشرعية، جامعة أحمد اليوسوي التركية

الكاخستانية الدولية

metin.yilmaz@omu.edu.tr

(مُلخَصُ البَحْث)

تؤدي بعض الأحداث التاريخية دورًا مهمًا في خلق آثار نفسية قوية على المجتمعات، ونتائجها لا تمحى أبدًا من الذاكرة. ومن بين هذه الأحداث المهمة يأتي غزو بغداد من المغول كواحدة منها. وبطبيعة الحال زادت أهمية بغداد كونها عاصمة للخلافة من تأثير هذا الغزو الذي لا يمكن نسيانه. فضلًا عن كونها مركزًا للإدارة الدينية في جميع أنحاء المنطقة الإسلامية في العصور الوسطى، و في الواقع، تم الرجوع إلى غزو المغول حتى في اثناء الغزو الذي تعرض له العراق في عصرنا، إذ تم التحدث عنه بشكل مقارن. في هذا البحث، سنقوم بدراسة الأثر المادي الذي خلفته جيوش المغول في بغداد بالكامل بالاستناد إلى السرد التاريخي. سنحاول تسليط الضوء على قيمة المصادر التاريخية المتنوعة عبر استعمال منهجيات التحكيم التاريخي بأسلوب علمي. سيتم تحديد مدى التدمير الذي لحق بمكتبات بغداد التي تم اختيارها كعينة بواسطة المصادر الأولية. يتكون هيكل البحث من روايات شهود العيان الذين شهدوا بأنفسهم الغزو، فضلًا عن ما أورده المؤرخون البارعون والرحلة الذين وصفوا بغداد بعد الغزو. سيتم توضيح الأخطاء في المعلومات والطرائق التي انحرفت عنها المصادر الحديثة في سرد قصصها بشكل أحادي الاتجاه. ثم أن مشاركة الحقائق التاريخية الكامنة خلف السطور بين الزملاء في المجال العلمي هي هدفنا الرئيس بدلاً من التسابق الزائد والشعبوية في قول أشياء جديدة مبالغ فيها بخصوص هذا الحدث التاريخي الشهير الذي اكتسب شهرة تاريخية، ويحمل في طياته عددا من الافتراضات الأساسية.

الكلمات المفتاحية: الغزو المغولي، صدمة بغداد، التحليل المقارن، الدمار المادي، روايات شهود العيان.

مقدمة:

إنَّ صحَّةَ الأطروحة التي قبلها مؤرخو قرننا القائلة: بأنَّ هدف التاريخ هو البحث عن الحقيقة الموضوعية للماضي، تقوِّي الأمل في أنَّ القرن الحادي والعشرين يمكن أن يكون خلاصًا من الفكر الإيديولوجي والذاتي في فهم التاريخ.

لكن يبدو أنه لا مفرَّ من القراءة الأيديولوجية للتاريخ، فإنكار الحقيقة التاريخية والموضوعية ومناقشة وجود وغياب علم التاريخ (جي إيفانز، ١٩٩٩م)، فضلا عن تأثير نظرية ما بعد الحداثة؛ كل ذلك من شأنه أن يعرض مفهوم التاريخ العلمي القائم على الفحص الدقيق للمصادر الأولية للخطر.

لا ينبغي أن ننسى أن كتب التاريخ ما هي إلا نتاج المؤلفين، وإنَّ هؤلاء المؤلفين يحملون ثقافتهم الخاصة وأيديولوجيتهم تجاه الماضي. تثير هذه الحقيقة عددًا من الأسئلة، مثل: كيف يمكن للمؤرخ الحصول على معرفة الماضي؟ وكيف سيكون ناجحًا تمامًا في ذلك؟ وكيف يمكن نقل الماضي الذي لا يمكن أن يكون معنا إلى الحاضر بموضوعية؟ على الرغم من وجود بعض التفاصيل الآن حول طريقة البحث في كتب منهج التاريخ، إلا أنَّه من الملاحظ أنَّ هذه التفاصيل لم تعتنِ بالجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية والفلسفية. وقد أدَّى ذلك إلى قبول لا يتطرق إليه الشك للمناقشات والنظريات التي كانت حاسمة في الحياة الفكرية لعصرهم، بصرف النظر عن قيمهم الخاصة، إذ لم يدافع عنها إلا عوامُّ الناس.

يمكننا القول بأنَّ الفروق العرقية والدينية والمذهبية والمصالح الاقتصادية ومفهوم التقرب من الحكام تُبعِدُ التاريخ الإسلامي التقليدي عن الموضوعية. على الرغم من حقيقة أن لديه أساليب نقد موثوقة وحديثة، وهي أعلى بكثير من الظروف التي تواجدت بها، إلا أنَّ الفشل في استعمال أساليب نقد الحديث في التاريخ الإسلامي أدَّى إلى تفاقم المشكلة المذكورة. يمكننا أن نرى تأثير العنصر الأيديولوجي في نقل الأحداث التاريخية بسهولة عبر الانقسام السنِّي الشيعي، والتمايز بين الحركات الدينية الأخرى التي دخلت حيز التطور في العهد الأموي، وفي كل تغيير للخلافة يكون الانقسام حاضرًا؛ فجهة ترفع راية التقديس عبر إضفاء الصبغة الدينية على تلك الخلافة، وجهة تتخذ موقفًا مغايرًا وتشن اتهاماتٍ تصل إلى حدِّ التكفير، ولا تزال المناقشات حول حلِّ هذه المشكلة تنتقل عبر العصور حتى انتقلت إلى يومنا هذا. إنَّ المؤرخ الحقيقي المتجرد من الحكم النسبي تراه وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة _ ينتقي بالنصوص والمعطيات، أخذًا في الحسبان الانسجام والاختلاف بين جميع المعطيات حتى يصل إلى نتيجة منطقية.

نحن على قناعة بأن المؤرخ المتحيّز حيال الأحداث التاريخية لن يعدو بنا عن الفهم الدفاعي عن التاريخ برمته من دون تمحيص، حتى ولو كان مقبولاً بالعموم. إنَّ جوهر الدراسة ليس أكثر من محاولة للوصول إلى معلومات سليمة بعيداً عن النهج الشعبي والقبول العام المتعمد، بعبارة أوضح هي محاولة لتناول جزء صغير من الأحداث التاريخية عبر مقارنة الروايات الواردة بشأن تدمير بغداد، ونقد المتن والسند عبر دراسة أحوال الرواة مع الإشارة إلى نقاط الاتفاق والاختلاف في الروايات مع عدم الجنوح إلى كثرة التعليقات على النصوص.

إنَّ مواقف المؤرخين المسلمين المتشددة ضد ادعاء حرق مكتبة الاسكندرية (منصور، ١٩٩٥م)، بالمقابل محاولات البعض الآخر إثبات العكس، وإن كانت في الأصل ما هي إلا محاولات لتبرئة عهد متميز بخلافة سيدنا عمر، غير أن الأدلة المقدمة ينبغي أن تعامل بشكل منطقي وموضوعي؛ لأن مصدر الرواية يعود إلى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، أما فتح مصر فكان قبل هذا بكثير. ومن جهة أخرى فإن طريقة سرد حكاية الواقعة لا يمكن قبوله، فمن غير المعقول قبول رواية مثل رواية تحريق الكتب في أربعة آلاف حمّام في مدة ستة أشهر شيئاً فشيئاً مع عدم استعمال وقود آخر غير الكتب. وقد اختلفت هذه التواريخ والأرقام من مصدر لآخر. من غير المفهوم تخصيص بعض الجند من القادة لمراقبة عمال بيت النار في الحمامات، والتأكد من إحراقهم الكتب في ظل وجود خيار أسهل وأسرع وهو خيار تحريق المكتبة فوراً. إن البحث في تاريخ مكتبة الإسكندرية تظهر حقيقة تخريب المسلمين لها من عدمه، نرى أن الخوض في تفاصيل مكتبة الإسكندرية غير مجدٍ بالنسبة لنا الآن؛ لأنه خارج نطاق بحثنا) كرد علي، ١٩٣٤م). ولا بد لكل قارئ وباحث معاصر أن يسأل نفسه السؤال الآتي: هل يُظهرُ المؤرخون المسلمون في قضية مكتبات بغداد ذات الحساسية التي يدافعون بها عن مكتبة الإسكندرية ويدققون في الروايات غاية التدقيق أم لا؟

أولاً: الروايات التاريخية حول تدمير مكتبة بغداد ومدى صحتها

إن جميع المصادر التاريخية العامة والتي تتضمن معلومات عن تعرض بغداد لأضرار نتيجة الغزو المغولي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي (١٢٥٨م/٦٥٧ هـ)، وعن قتل عدد من الأشخاص بأمر هولاكو، متفقة على حدوث التدمير (ابن الفوطي، ١٩٣٢م؛ فضل الله، د.ط؛ ابن كثير، د.ط؛ ابن خلدون، ١٩٩٩م؛ حسبك، ١٩٦٨م؛ غروست، ١٩٨٠م). لكن هذه المصادر اختلفت فيما بعد في كيفية تناول هذا الموضوع، فمنهم من لم يذكرها أصلاً، ومنهم من ذكرها، والذين ذكروها أيضاً وقعوا في الاختلاف فيما بينهم عند اختلافهم حول كيفية حصول هذا التدمير (الأعسم، ١٩٩٩م). ومن أجل الوصول إلى استنتاج أكثر صحة وموضوعية فيما يتعلق بمصير مكتبة بغداد والكتب التي كانت

بداخلها نتيجة الغزو سيكون من المناسب سرد الروايات والطريقة التي ساقها المؤرخون وكشف مصادرهم ونقطة ارتكازهم في تناول الحادثة.

القلقشندي: في حديثه عن محتويات المكتبات في المدن الإسلامية، وحين جاء ذكر مكتبات بغداد (القلقشندي، ١٩٨٧م) ذكر أن هنالك كتباً لا تحصى ولا تقدر بثمن، وإن هذه المكتبات كانت قيد الاستعمال لحين استيلاء هولاء على مدينة بغداد، وإن تلك الكتب اختفت بشكل غير مفسّر بعد مقتل الخليفة ولم يبق لها أثر (القلقشندي، ١٩٨٧م). وقد أعرب القلقشندي بعد ذكر هذه المعلومة عن قلقه بشأن مصير هذه الكتب من دون أن يعقب بأي شيء.

ابن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) بعد ذكر أعداد القتلى والأحداث الداخلية التي حصلت قبل الاجتياح المغولي وبعده قال: إن جميع الكتب قد ألقيت في نهر دجلة من قِبَل المغول، وعلل ذلك بأن الأمر قد وقع ردّاً على ما فعله المسلمون عند دخولهم فاتحين لبلاد الساسانيين؛ إذ فعلوا ذات الأمر بكتبهم (ابن خلدون، ١٩٩٩م). ومن المؤسف أنه لم يكن لدينا فرصة للعثور على أيّة معلومات حول الروايات التي بنى ابن خلدون عليها تعليقه بشأن تدمير المسلمين للمكتبات الساسانية، ولا سيما أن ابن خلدون نفسه لم يذكر مصدر تلك الروايات. قد يبدو بعيداً عن المنطق قبول فكرة قيام دولتين (المغول، الساسانيين) مختلفتين في العقيدة والأهداف السياسية بالانتقام لبعضهما، علماً أن ما فعله المغول عند استيلائهم على الأراضي الساسانية ليس بأدنى مما فعلوه في بغداد. (غروست، ١٩٨٠؛ فضل الله، د.تم) فكيف يمكننا تفسير هذا التقارب؟ إن أقوى احتمال يمكننا أن نسوقه في تفسير تعليل ابن خلدون هو بأن ما حصل ما هو إلا تجلّ لوجهة النظر المسبقة من قِبَل الشيعة الفرس تجاه معتقد أهل السنة واستدراكاً منهم للمظلمة السابقة بحقهم بحسب زعمهم. إن الفتن التي انتشرت بين أنصار الخليفة من جهة وبين الشيعة في عهد الاجتياح بفعل الدسائس البيزنطية، وتحميل الشيعة المسؤولية في اجتياح المغول لبغداد من خلال قيام وجهاء الشيعة وعلى رأسهم وزير الخليفة بدعوة المغول لهذا الاجتياح، كل ذلك جعل الشعور بالانتقام سبباً أقوى ومرجعاً على علة التحالف التاريخي المزعوم بين المغول والساسانيين (عباس، د.ت؛ الأعمش، ١٩٩٩م).

ابن الساعي (٦٥٥هـ/١٢٧٥م) أورد رواية لم نستطع العثور عليها عند غيره، إذ قال: بنى المغول اسطبلات من الكتب من أجل وضع خيولهم، كما استعملوا الكتب بدلاً من الطوب للبناء (ابن الساعي، ١٩٣٤م). ابن تغري بردي (الأتابكي) (٨٤٧هـ/١٤٤٣م): يقول: أحرقت جميع الكتب التي تحتوي على العلوم والفنون في الدنيا (ابن تغري بردي، 1938م).

لعل تصريح ابن تغري بردي هذا يمكننا عده مقبولاً وغير مبالغ به عبر سوقه منهجية أكثر منطقية، كما يمكننا تقبل مثل هذه التصرفات على أنها حصلت في التاريخ.

إن الرواية الأشهر من بين الروايات التي سردها المؤرخون والمتناقلة على ألسنة الناس والتي تحولت إلى حكايا تتداولها الأجيال هي رواية قطب الدين النهروالي [النهروالي وهو أحد مدرسي الحرم الشريف وعلاوة على ذلك فهو متخصص في التفسير والحديث، وكما يفهم صاحب علاقة طيبة مع الأتراك، فلقد كان الوفد العثماني عندما يصل إلى البلد الحرام بقصد الحج يجعلونه معهم دائماً يرافقهم طوال الحج وعند المغادرة يغدقون عليه الهدايا. ولقد وقع في ترجمة النهروالي خطأ بارز، بل الأكثر من ذلك تعريف المؤلف به تحت اسم النهرواني ونحن أيضاً كنا سنقع في نفس الخطأ ولقينا صعوبة بالغة في الوصول إلى المصدر، محقق الكتاب محمد أمين كتبي قد تناول هذا الموضوع وأفصح عن سبب هذا الخلط وقال: النهراواني نسبة إلى بلدة بين واسط وبغداد، أما النهروالي فهي نسبة على عائلة نهر وآله، (الحنفي، ١٣٧٠هـ)] والتي تقول: إن الكتب التي كانت موجودة في مكتبة بغداد قد أُلقيت في نهر الفرات لدرجة أن العدد الكبير للكتب قد صنع جسراً على النهر ما سمح للمشاة والفرسان بالمرور عبره، وإن لون ماء النهر قد استحال إلى اللون الأسود بسبب حبر تلك الكتب (الحنفي، ١٣٧٠هـ؛ الطباع، د.ت.م). إن قطب الدين الذي عاش بعد قرابة أربعة قرون من سقوط بغداد (الحنفي، ١٣٧٠م) ولم يذكر أي سندٍ للرواية قد استعمل قدراته الدرامية في تصوير حالة بغداد في أثناء الغزو مستعملاً عباراته اللطيفة والسردية لإضفاء الطابع الدرامي على المشاهد المستوحاة من المصادر التاريخية، علماً بأن الموضوع الرئيس في كتاب قطب الدين يدور حول تاريخ مكة، ولا يعد موضوع اجتياح بغداد من المواضيع الأساسية فيه، وعلى الرغم من عدم حصولنا على تفاصيل كثيرة حول الحادثة كما هي موجودة في رواية قطب الدين نراه قد ذكر أن الكتب قد أُلقيت في نهر الفرات في حين أن ابن خلدون ذكر أنها أُلقيت في نهر دجلة، وعلى هذا فإن مسألة ما إذا كان الخلاف ينبع من الاختلاف في مصدر المعلومة أو خطأ من المؤلف في إدراك المسألة واستيعابها؛ مشكلة يصعب اكتشافها. ومع ذلك فإن كلتا الحالتين تضعف صحة الرواية والمعلومات الواردة فيها.

إن الخلط الحاصل من قبل ابن تغري بردي بين الفرات ودجلة دليل واضح على أنه لا يملك معلومات كافية عن موقع بغداد الجغرافي ولا سيما أن بغداد من حيث العمران كانت مقسمة إلى قسمين شرقي وغربي بنهر دجلة، وكانت المكتبات مطلة عليه (حمّاد، د.ت.م)، وفي رواية أخرى إن الكتب قد استعملت بدلاً من الطوب والحجارة في بناء جسر على نهر دجلة (ابن تغري بردي، ١٩٣٨م؛ الأعمش، ١٩٩٩م). أما المؤرخون المعاصرون المهتمون بتاريخ المغول

والعراق، فمن الغريب ألا نجد شرحًا وافيًا عندهم عن تدمير مكتبة بغداد التي أصبحت رمزًا لسقوط بغداد.

المؤرخ العريني (العريني، ١٩٦٢م؛ حسيك، ١٩٦٨م)، الذي وضع توقيعه على واحدة من أكثر الدراسات شمولاً عن التاريخ المغولي، والصيد (رشيد الدين، ١٩٦٧م) الذي كتب شرحًا لكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني (ت ٧١٧هـ/٣٢٨م) الذي يستعمله المؤرخون مصدرًا مشتركًا في سقوط بغداد، والقزاز (القزاز، ١٩٧٠م) هو كاتب عراقي أجرى دراسة معمقة في تاريخ العراق والتي نعدها ذات جودة عالية في إطار بحثنا، وسليم وكيل (واكيم، د.تم) الذي كتب نتائج وعاقبة سقوط بغداد بطريقة درامية مبالغ به، وغروست (غروست، ١٩٨٠م) المؤرخ الغربي المهتم بالتاريخ المغولي (١٩٥٢م)، ومن المؤرخين الأتراك، كتابجي (كتابجي، ٢٠٠٠م)، وعدد من المؤرخين الآخرين، الذين لم نذكر أسماءهم، لم يكتبوا سطرًا عن تدمير مكتبة بغداد. لكننا نرى أنّ حادثة تدمير مسجد الخليفة واستشهاد موسى الكاظم قد تم تضمينها في أعمال جميع المؤرخين الشرقيين والغربيين الذين درسوا هذه المدة. ومع ذلك، وبغض النظر عن عدم تدوين هذه الحادثة، كان هناك بعض من قدموا وجهات نظرهم حول نقطة تدمير المكتبة والكتب، عبر جمع أكثر الروايات ذات الصلة. عبد العزيز الدوري، والذي يعدُّ من أهم المؤرخين في عصرنا والذي سنحت لنا الفرصة للاستفادة منه، يستعمل العبارات الآتية حول المكتبات في أثناء وصف الأضرار التي سببها الغزو المغولي: "لقد دُمّرت المكتبات. احترق قسم من الكتب، وبعضها ألقى في نهر دجلة. جرى النهر مصبوغًا بلون الحبر لعدة أيام" (الدوري، د.ت).

كذلك حجي أحمد أوزدمير، الذي أجرى دراسة الدكتوراه عن غزو المغول، وعلى الرغم من تقديمه لعدد من الأدلة المقنعة حول تدمير مكتبة بغداد في القسم الذي فحصه تحت العنوان الفرعي لنهب بغداد. وسوقه أدلة من شأنها أن تجلب مبادرات جديدة، إلا أنه في نهاية الفصل أشار إلى نقص المعلومات المتعلقة بهدم المكتبات، على الرغم من ذلك نراه قد بنى ترجيحه على هذا الأساس غير المتين. يستعمل أوزدمير العبارات الآتية: "باختصار، لا نجد معلومات في المصادر بأن المكتبات دمرها المغول، بحسب قوله، حتى نهر دجلة اتخذ اللون الأحمر بسبب دماء القتلى، أو الأزرق أو الأسود؛ بسبب انحلال حبر الكتب، يستعمل القلقشندي تعبيرًا غامضًا في شأن تدمير المكتبات مثل "ذهب إلى وجهته". عدا ذلك لا نجد أية معلومة واضحة، لكن في مدينة تم نهبها لأيام عدة، وحرقتها وتدميرها بالكامل، ولم ينج من هذا الحريق سوى عدد قليل من المباني المبنية من الطوب. فمن الطبيعي ألا نعثر على المكتبات وأن تكون قد دمرت أيضًا. علينا أن نقبل ذلك على هذا النحو" (أوزدمير، ١٩٩٧م). من السهل علينا تفهم موقف الدوري من الحادثة عند استعماله لعبارات لا تقبل

النقاش، بالمقابل نجد صعوبة في تفهم موقف أوزدمير الجانح نحو قبول فكرة التدمير المادي والمعنوي، على الرغم من أنه قد تناول المسألة بالتفصيل، وذكر في بحثه أدلة المؤرخين المعارضين لفكرة التدمير من أمثال: سهيل زكار[هو في المقدمة التي كتبها على النسخة العربية من كتاب برتولد شبولر (العالم الإسلامي في العصر المغوليم) يرى أن مسألة تخريب المكتبات والكتب في بغداد أمر مبالغ فيه، مع قبوله مسألة التخريب النسبي، لكنه مع ذلك يلفت الانتباه إلى عدم أهمية ذلك. (أوزدمير، ١٩٩٧م)] وماجنسن [هو الذي كتب مقالاً حول المكتبات الأربع الكبرى في بغداد، ادّعى أن مكتبات بغداد لم تدمر من قبل هولوكو بل قد تكون قد دُمّرت من طرف تيمور في القرن الخامس عشر، خصوصاً وفي نقله عن الجويني، إذ قال: إن هولوكو كان قد قرر أن يتخذ من بغداد مركزاً له فلذلك أمر بعدم تخريبها، وإنه أمر بإعادة إعمارها مباشرة بعد السيطرة عليها. (أوزدمير، ١٩٩٧م) و استنتاجاتهم المنطقية. من غير المستغرب أن نجد شخصاً ليس لديه أدنى معلومة بالتاريخ التركي والإسلامي تقفز إلى ذهنه مباشرة مسألة تدمير المكتبات والكتب عند ذكر سقوط بغداد على الرغم من عدم احتواء غالبية البحوث التاريخية المعاصرة على معلومات حول هذا التدمير، ولاسيما كما ذكر أوزدمير أن سبب ذلك هو أن المصادر الأساسية المعاصرة لسقوط بغداد لم تذكر حادثة تدمير المكتبات ولا إتلاف الكتب. وعلى رأس هذه المصادر كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، وعلى الرغم من تفصيله في مسألة ظلم واضطهاد جند المغول، وإن أعداد القتلى قد وصلت إلى ثمانمائة ألف قتيل، وتفاصيل مقتل الخليفة، إلا أنه لم يذكر أية معلومة حول مصير المكتبات والكتب (ابن الفوطي، ١٩٣٢م). من المعروف أن ابن الفوطي كان في الرابعة عشرة من عمره عندما سيطر المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، سُجن ابن الفوطي في حادثة اغتيال الخليفة، وبقي في السجن حتى عام ٦٥٩هـ، ثم هرب. وبعد مدة اكتشف نصير الدين الطوسي (المتوفى ٦٠٦هـ/١٢١٠م)، وزير هولوكو الجوهر المكنون في ابن الفوطي وأخذه تحت حمايته، بشرط أن يقوم بتربية الطلبة وتعليمهم. أعطى دروساً في التجويد والخط في الأكاديمية التي أنشأها الطوسي في أذربيجان (ماراغا) بناءً على طلب هولوكو. وبعد عودته إلى بغداد في ٦٧٩هـ/١٢٨١م، تم تعيينه مشرفاً في مكتبة بغداد التي زُعم أنها دمرت. يُذكر أنه كان يوجد ٨٠ ألف كتاب عندما تولى منصبه، ويُلاحظ أنَّ مكتبة بغداد احتفظت بمكانتها بين أكثر المكتبات ضخامة في العالم. يمكننا القول من سيرة ابن الفوطي أنه لا يوجد شخص آخر أقرب إلى المكتبة منه لا من المؤرخين المنحازين للعباسيين ولا من المنحازين للمغول. (ابن الفوطي، د.ت.) قد يخطر بالبال مثل هذا التساؤل؛ عمّا إذا كان ابن الفوطي قد اتبع سياسة مؤيدة للمغول بعد أن أصبح تحت مظلة الطوسي. لكن كما ذكرنا أعلاه، يكفي لدحض هذه الفرضية قراءتنا

لوصف ابن الفوطي الذي كتب من دون تردد عن قسوة الجنود المغول. بالنسبة لابن الفوطي، وهو عالم حقيقي بكل معنى الكلمة، يجب أن يكون الدمار الأكبر هو تدمير الكتب التي هي كنوز العلم. ولو دمّرت المكتبة أفلا يتحدث عنها ابن الفوطي أولاً؟ فالمكتبة التي كان يعمل بها بعد عودته من ماراغا لم يتم تدميرها كما يفهم، بل على العكس تمامًا فهي كنز مليء بالكتب الضخمة.

المصدر الثاني المهم هو جامع التواريخ للمؤرخ الإيراني رشيد الدين الهمداني المكتوب سنة ٧٠٢هـ/١٣١٣م (مؤلف مجهول، ١٩٩٥م) باللغة الفارسية. يجب علينا أن نتساءل بحماس عن ماهية المعلومات التي احتواها هذا الأثر الذي لا يقدر بثمن حول تدمير المغول لمكتبة بغداد. علماً أن رشيد الدين وقياساً على ابن الفوطي كتب أدق التفاصيل عن تلك المرحلة بدءاً من مراسلات الخليفة مع هولوكو إلى سقوط بغداد.

وهنا نتساءل مستغربين: هل ذكر رشيد الدين الذين أوليناه أهمية خاصة معلومات عن مسألة حرق وتدمير المكتبات؟ كما هو حاصل عند ابن الفوطي؟ فإن رشيد الدين قد ذكر الأحداث اليومية حول سيطرة المغول على بغداد، وذكر هدم مسجد الخلافة، ومقتل موسى الجواد، وهدم جزء من قبور الخلفاء (فضل الله، د.ط.) من دون أن يذكر شيئاً عن تدمير أي مكان آخر. إنّ تشابه الروايات بين ابن الفوطي ورشيد الدين يزيد من قيمة المعلومات الواردة فيهما وصحتها. فلو تضمنت هذه الروايات شيئاً من المبالغات والفروق لكان بالإمكان جعل هذه الفروق عنصر إثبات لحقيقة التدمير، وعلى الرغم من تباين الصفوف بين المؤلفين، نجد أنهما متفقان في خلو كتبهما من مسألة حرق المكتبة وتدميرها، وهذا بحد ذاته يعد دليلاً على عدم وقوع الحادثة.

وعلى الرغم من حصولنا على الكثير من رسائل نصير الدين الطوسي إلا أننا مع الأسف لم نستطع العثور على رسالة له في سقوط بغداد والتي تعد المصدر الثالث والأهم من بين المصادر حول الحادثة. ومع ذلك، ووفقاً للمعلومات التي حصلنا عليها من المصادر الفرعية، نجد أن الطوسي لم يصرح بأية معلومة حول مصير الكتب. (الأعسم، ١٩٩٩م) قد يُعْتَقَدُ أن الطوسي باعتبار هويته السياسية الواضحة وخضوعه باستمرار لقيادة هولوكو قد أخفى بعض الحقائق، لكن بالمقابل نجد أن الطوسي قد عُرفَ بهويته العلمية أكثر من هويته السياسية، فهو قد اشتهر وحتى تاريخنا المعاصر بإسهاماته في مجال الفلسفة والكلام ولاسيما علم الفلك. (المشهداني، ١٩٨٨م) من وجهة النظر هذه، وإذا وضعنا في الحسبان شخصية متفوقة كالطوسي يعرف قيمة العلم والكتب والتأليف جيداً، فلا يوجد احتمال أن يُتَمَكَّنَ من حرق الكتب في ظل امتلاكه السلطة وقربه من هولوكو. ولو حصل ذلك جديلاً لما كان الطوسي قد توانى عن ذكر ذلك. المؤرخون من أمثال: أبو الفداء (ت

٧٣٦هـ/١٣٣٦م)، ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، ابن كثير (٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) ابن حبيب (٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م)، والذين تضمنت كتبهم مناقشات حول كيفية مقتل الخليفة، لم يقدموا أية معلومات عن حرق مكتبة بغداد أو هدمها. وينطبق الشيء نفسه على النصوص الأدبية. في حين أن الكثير مما حوته المراثيات مبالغ فيه، فلا يمكن العثور على سطور حول حالة الكتاب والمكتبة. (عبد الرحيم، ٢٠٠١م) إذن، ما أساس المصادر التي تسببت في الإشاعات بأن المكتبة والكتب قد أحرقت أو أُلقيت في النهر؟ من المرجح جدًا أن أولئك الذين كانوا مصدرًا لمؤرخين موثوقين مثل: ابن خلدون، والقلشندبي كانوا من أتباع الخليفة الذين فروا من بغداد إلى البلدان الواقعة على ساحل شمال إفريقيا في أثناء الاجتياح المغولي. قد يكون هؤلاء الأشخاص الذين أصبحوا لاحقًا مؤرخين قد أدرجوا الروايات الشعبية في كتبهم (الأعسم، ١٩٩٩م؛ عبد الرحيم، ٢٠٠١م). فالقلشندبي عاش في مصر وابن خلدون في المغرب. فليس لديهم الإمكانية لرؤية الأحداث على الفور وفحصها لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان. (عبد الرحيم، ٢٠٠١م) واتباع الخليفة الذين لم يستطيعوا قبول سقوط بغداد، كتبوا الكثير من الرثاء والأشعار على أطلال انهيار الخلافة التي استمرت خمسة قرون، وفقدان القيادة السياسية والروحية. كُتبت الكثير من المراثيات التي ترجمت مشاعر وأحاسيس الناجين من تلك المجزرة، هذه المراثيات ذات الأدب الرفيع قد نقلت إلينا الحالة النفسية المتعبة للمسلمين الذين وقفوا إلى جانب الخليفة ضد المغول، هذه الأشعار والمراثيات كانت قد جُمعت في كتاب تحت عنوان " مراثيات سقوط بغداد على يد المغول" (Mongols، ١٩٩٩؛ طه بدر، ١٩٩٩م؛ عبد الرحيم، ٢٠٠١م؛ الصياد، د.ت.)

ثانيًا: عبارات تشرح للمؤرخ المسلم القزاز نفسية أهل بغداد بشكل جيد للغاية:

كانت الخلافة تمثل السلطان الروحي الذي يجمع ولاء المسلمين ويشدُّ بعضهم إلى بعض، وقد تطورت طاعة المسلمين للخليفة طوال القرون الخمسة التي عاشتها الخلافة العباسية حتى أصبحت جزءًا متما لمعتقدهم؛ لذلك جاءت ضربة المغول لهذا السلطان انتقاصًا لهذه المعتقدات، وأساءت لمشاعر المسلمين. (القزاز، ١٩٧٠م) أقوال المؤرخ نفسه في نهاية الفصل المعنون "سقوط بغداد" وتفسير مشاعره تحرضنا على مزيد من التأمل، يقول: كانت هذه الحرب سببًا لوقوع البلاد الإسلامية ولاسيما العربية تحت الحكم الأجنبي ما أفقدها حيويتها وقدرتها على العمل واستمر ذلك حتى القرن العشرين، إذ بدأت تخفف من وطأته. (القزاز، ١٩٧٠م)

كما هو واضح أن مؤرخ القرن العشرين لم يمتنع عن إدراج مشاعره بين السطور، وفجأة عاد قرونًا إلى الوراء، ربما عن غير قصد، حتى بدا انحيازه في تناول المسألة. لقد وقع في حالة من اليأس لدرجة أنه لم يستطع رؤية المدة الزمنية الطويلة التي تمت فيها خدمة

الإسلام، مثل: العصر الملوكي والعثماني، أو ظل عالقًا في قرشية الخلافة. فمن المفهوم أن المؤرخين نقلوا المعلومات المبالغ فيها مع هذا الزخم العاطفي المفرط مع احتمال أن تكون صحيحة. علاوة على ذلك فإن القلقشندي يتحدث عن اختفاء الكتب. وهذا لا يعني بالضرورة أن الكتب قد دمرت، فمن الممكن أن تكون الكتب قد نقلت إلى مكان آخر كما سنذكر لاحقًا، بالمقابل وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يفسح المجال للمبالغة بذكر أن لون النهر تغير أو أن الكتب قد صنع بها جسرٌ على النهر كما في روايات بعض المؤرخين، فإنه من وجهة نظرنا لم يكن صائبًا فيما توصل إليه من تحليلات. كما أن ربط ابن خلدون لمسألة تدمير بغداد بطلب الانتقام المتولد من التدمير المزعوم من المسلمين للمكتبات الساسانية، دليل على عدم الإصابة في وجهة نظره.

عندما نعدّد المعلومات حول تدمير الكتب واحدًا تلو الآخر، فإن الاختلافات الواقعة بين النصوص تثير الشكوك في عقل القارئ بالفعل. هذه التناقضات المتطرفة تكاد توحي لنا بأن السرد لا يخضع لمصدر متين وقوي، ويجب التعامل معه بحذر؛ لذلك فإن ما يجب القيام به هنا هو تضمين البيانات التاريخية قبل الحرب وبعدها، وبهذه الطريقة نعتقد أنه سيتم الوصول إلى المعلومات الصحيحة والمفيدة عبر فحص دقة أو خطأ الروايات المنقولة، إذ تعد بعض تصرفات المغول قبل الوصول إلى بغداد مهمة من حيث تقديم تصور لتصرفاتهم المستقبلية.

مهما بدا أن هولوكو قد وضع غزو بغداد في ذهنه، إلا أن العامل الذي أدى إلى إصراره كان الجدل القاسي المتبادل مع الخليفة، (فضل الله، د.ت.) في حين كان هو لا يزال في الأراضي الإيرانية، إذ طلب من الخليفة أن يكون شريكًا في فتح قلعة الموت الواقعة في الداخل الإيراني التي يسيطر عليها حسن الصباح، ورفض الخليفة المستعصم لطلبه هذا، ذلك أدى إلى غضب هولوكو وعزمه على غزو بغداد. (فضل الله، د.ط.؛ غروست، ١٩٨٠م) بالنسبة لبعض المؤرخين فإن هولوكو لم يكن يفكر أصلًا في المسير نحو بغداد، ولكن وبإصرار من نصير الدين الطوسي، قد عدل من وجهته نحو الأراضي البيزنطية وتوجه نحو بغداد، (ابن الفوطي، ١٩٣٢م؛ القزاز، ١٩٧٠م) وعلى أية حال فإن الوضع الإيراني يمكنه أن يعطينا تصورًا جيدًا للمرحلة التي سبقت غزو بغداد.

إن قضية السيطرة على القلاع التابعة لحسن الصباح وجنده بعد طردهم منها قضية مهمة جدًا بالنسبة لنا، ففي أثناء السيطرة على القلعة كان هنالك بجوار هولوكو الجويني (بارتولد، ١٩٦٧م؛ غروست، ١٩٨٠م) صاحب كتاب تاريخ جهانكشاي والذي قال بأنه أشار إلى هولوكو بوجود مكتبة قيمة جدًا في القلعة، والتي ينبغي المحافظة عليها. ثم قال: لقد أُعجب هولوكو بهذا القول، وذهبت إلى المكتبة بأمرٍ منه، وأخذت منها المصاحف والكتب

القيمة، كما أخذت الأجهزة التي تستعمل في الأرصاد، وأحرقت كتب المذهب الإسماعيلي الضال التي لا علاقة لها بالعلوم النقلية ولا العقلية، وفي أثناء البحث في المكتبة عثرت على كتاب تاريخ جيل وديلم الذي كتب من طرف فخر الدولة. (سعيد، ١٩٩٩م؛ كتابجي، ٢٠٠٠م؛ العريني، ١٩٦٢م)

إن لم يكن اهتمام هولوكو بالكتب الدينية وتعيينه للجويني ناظرًا على الكتب للمحافظة عليها (أوز آيدن، ١٩٨٩م) دليلًا على اهتمامه بالمؤلفات الشرعية والكتب العلمية، فماذا عساه أن يكون؟ ولا سيما لو أننا اعتبرنا هولوكو عدوا حاقدا على الإسلام، فهل كان سيغض الطرف عن حفظ الجويني للمصاحف؟ ومهما صرَّح الجويني بأنه قد أحرق بعض الكتب المحرفة فهذا يدلُّ على أنه لم يحرقها كلها بدليل استشهاده في المجلد الثالث لكتابه المشهور فيما بعد من كتاب سرگذشت سيدنا (سيرة سيدنام) والذي يعد كتاب الإسماعيلية الأول والذي يتضمن عقيدة حسن الصباح. (العريني، ١٩٦٢م) من الصعب علينا أن نتقهم الروايات التي نقلت تسامح هولوكو مع مكتبة تابعة لمذهب منحرف ضال، والمحافظة عليها وإبقائه على كتبها حتى وصلت إلى يومنا هذا، وعدم معاملته بالمثل لمكتبة تابعة لحضارة عمرها يزيد عن ستمائة سنة. هولوكو وبعد الاستيلاء على بغداد وهزيمته للخليفة عاد إلى أذربيجان، وكان أول عمل قام به هو بناء مساكن جديدة حول بحيرة أورميه لاستعمال الغنائم. فضلا عن إيعازه إلى وزيره نصير الدين الطوسي بإنشاء مدرسة ومكتبة ومركز رصد على سفح هضبة في شمال ماراغا، وبحسب ما أشار إليه رشيد الدين (غروست، ١٩٨٠م؛ عباس، د.ت.؛ حمّاد، د.ت.؛ أوزمير، ١٩٩٧م) إن الطوسي صاحب المسؤوليات كلها قد استقدم علماء الفلك من الصين، وبدأ بالتعاون معهم لكتابة تقويم فلكي جديد، وبعد عمل دام خمس عشرة سنة كانت النتيجة تأليف كتاب تقويم إلهان الفلكي، فضلا عن الطوسي فقد شارك في تأليف هذا الكتاب علماء مسلمون من أمثال: ابن تغربردي الشيرازي (٧١٠هـ/١٣١١م)، ومؤيد الدين العرضي الدمشقي، ومحبي الدين المغربي، وفخر الدين المراغي، وفخر الدين الخلاطي، ونجم الدين الديبراني الكاتب القزويني (٦٦٥هـ/١٢٦٦م). ولقد بلغت تكلفة بناء المرصد عشرين ألف دينار، واستمر بناؤه إلى عهد أباخان ما بين الأعوام (٦٦٣هـ-٦٨٠هـ/١٢٦٥م-١٢٨٢م). (فضل الله، د.ت.؛ عباس، د.ت.)

يروى أنه وبالتزامن مع تشييد مركز الرصد تم إنشاء مكتبة ضخمة تحتوي على أربعمائة ألف كتاب. (ابن الفوطي، د.ت.) هذا الرقم وإن بدا وكأنه مبالغ به فإن وجود ما يسمى في يومنا الكليات ومراكز الأبحاث ووجود الفعاليات والأبحاث العلمية في ذلك الزمن، يجعلنا نقلل من عدد الكتب الموجودة في تلك المكتبات. وهنا يخطر في البال سؤال وهو: كيف تم تجميع هذا العدد الكبير من الكتب في مدة قصيرة في مكتبة ماراغا؟ فهل يا ترى تم نقلها من

مكتبة أخرى؟ إن المعطيات التاريخية تؤيد ذلك. (الصفدي، ١٩٦٢م)، إذ إن المقرئزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) يزعم بأن معظم هذه الكتب قد تم جلبها من مكتبة بغداد. (المقرئزي، ١٩٩٧م) لكن وكما بيّننا من قبل، فإن قول ابن الفوطي الذي كان مشرفاً على المكتبة المستصرية بعد الاستيلاء على بغداد بوجود قرابة ثمانين ألف كتاب لا مثيل لها في الدنيا في تلك المكتبة يدل على أن قسمًا من الكتب قد تم نقله لا كلها. (ابن الفوطي، د.تم) ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد تم نقل كتب من الشام وإيران إلى ماراغا. (المشهداني، ١٩٨٨م؛ الأعمش، ١٩٩٩م؛ عبد الرحيم، ٢٠٠١م) وبعيداً عن نقل الكتب من المكتبات يُعلم بأن الطوسي كان قد وهب كتبه التي اشتراها من الوراقين إلى مكتبة ماراغا. (القرز، ١٩٧٠م) من خلال الفعاليات الثقافية نستنتج أن ماراغا باستثناء بغداد كانت مدينة لا شبيه لها من حيث تدريس العلم وكثرة العلماء ووجود مكتبة ضخمة فيها. (ابن الفوطي، د.تم) فهل من المنطق أن هولاءكو الذي أمر بإنشاء هذه المكتبة الرائعة ومركز الأبحاث في ماراغا في أقصر وقت والطوسي ذلك العالم القيم الذي جمع كل الصلاحيات المتعلقة بالبحث العلمي تحت سلطته، أن يقوموا بإحراق المكتبة التي تضم عدداً من الكتب في العلوم الإنسانية والدينية، مثل مكتبة بغداد، أو القيام بجهد خاص مضاعف وإلقاء تلك الكتب في نهر دجلة؟ فلماذا أراد الطوسي شراء الكتب التي كان يبيعها أهل الكوفة والحلة في السوق؟ ولماذا يأمر هولاءكو وزيره بتأسيس مثل هذا المركز على الرغم من علمه أن العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية كانت تدرس في مدرسة ماراغا - إذ إن ابن الفوطي كان يعطي دروساً في التجويد والخط وكان غالبية أعضاء هيئة التدريس من المسلمين؟ فلو كان هولاءكو حاقداً على دين الإسلام وثقافته ألم يكن من الأولى له ألا يأذن بهذا الأمر؟ لذلك فمن المحتمل جداً أن هولاءكو والطوسي لم يدمروا مكتبة بغداد بل نقلوها بطريق عودتهم إلى مكتبة ماراغا، فضلاً عن ذلك فابن الفوطي له رواية أخرى فيها دليل مهم على أن الكتب لم يدمرها المغول، إذ أفاد ابن الفوطي أن بعض الناس أحضروا طعاماً من البصرة إلى بغداد واشتروا بثمنها كتباً لا تقدر بثمن. (ابن الفوطي، ١٩٣٢م؛ القرز، ١٩٧٠م) فلو أن الكتب والمكتبات قد احترقت أو أن الكتب أُلقيت في النهر، فأين سيد أهل بغداد هذه الكتب الثمينة؟ وبالنظر إلى أن الكتب هي مخطوطات، فقد يكون السبب الوحيد المقبول لانتشارها ووفرتها بما يكفي لعرضها في السوق، إن الناس قد استولوا على الكتب من المكتبات مستغلين فراغ السلطة المؤقت. كما نفهم من ذلك أن عشاق الكتب قد اشتروا هذه الكتب بأسعار معقولة مستغلين حاجة الناس للطعام بسبب آثار الحرب.

إذا كان هناك بعض الحقيقة في رواية السيوطي (٩١١ هـ / ١٥٠٥م)، فقد تكون المكتبات قد واجهت التدخل الشخصي لبعض الأشخاص الخبثاء الذين أرادوا الاستعادة من البيئة المعقدة التي سببتها الحرب. وذكر السيوطي أنه بناء على طلب بعض الحكام لمجيء ابن عباد فإنه أرسل الجواب التالي ردًا على ذلك: "أحتاج إلى ستين جملاً لحمل الكتب الأدبية معي". (السيوطي، د.ت.؛ زيدان، ١٩٦٧م) عمومًا ليس عندنا دليل صريح على نقل الكتب من المكتبات، حتى لو كان يعتقد أن الكتب قد تم نقلها، فقد يتبادر إلى الذهن سؤال عما حدث للكتب غير الأدبية، إن الكتب المباعة في شوارع وأسواق بغداد، وكذلك محاولات سرقة الكتب بشكل جماعي من المكتبة، دليل على وجود المكتبة وتوفر الكتب على وضعها في ذلك الوقت.

إن إدراك الحالة العمرانية والاجتماعية لمدينة بغداد قبل هجوم المغول يساعدنا على تقدير حجم القتل والتدمير الناتج جراء هذا الغزو، كما يساعدنا على توفير معلومات حول وجود أو عدم وجود هدم وتدمير للمكتبات، فليس الهدف من هذه المقالة التهوين من حدة القتل والتدمير الذي حصل نتيجة الغزو، بل الهدف هو تجريد الروايات حول جزء مهم من التاريخ من المبالغات، وتقديم الحقائق كما هي مجردة عن أي تدخل.

هولاكو وقادته بدأوا الهجوم على بغداد وحاصروها في الثامن عشر من شباط سنة (١٢٥٧م) برفقة مائتي ألف جندي، (السيوطي، ١٩٥٢م) الجيش المغولي لم يكن مؤلفًا من العنصر المغولي فقط بل كان يضم عناصر مسلمين ونصارى، وهذان الصنفان كانا بصرفان جهدًا مضاعفًا في سبيل إظهار ولائهما لهولاكو. فإن افترضنا حصول تدمير من الجيش المغولي فحينها ينبغي علينا أن نحمل هؤلاء جزءًا من مسؤولية التدمير. أما جيش الخليفة فإن ابن كثير يبين أنه لم يكن يجاوز عشرة آلاف جندي، (ابن كثير، د.ت) فيمكننا أن نستنتج من قلة عدد جنود الخليفة أحد أمرين: إما أن بعض جنود الخليفة قد انحاز إلى جيش هولاكو، أو أن الشعب تراجع ولم يشترك في الدفاع عن بغداد، والذي قادنا إلى تقدير ذلك هو تلك اللهجة المهذدة والمتوعدة التي كان يخاطب بها الخليفة المستعصم هولاكو ردًا على رسائله المهذدة باجتياح بغداد. "أيها الشاب الحدث...! المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطًا ومتغلبًا على جميع العالم، مغترًا بيومين من الإقبال، متوهمًا أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم... ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب، من يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي. (فضل الله، د.تم)

فلندع الشرق والغرب جانبا، فإن عدم اشتراك أهل بغداد المسلحين في الدفاع عن الخليفة يظهر لنا عدد جنود الخليفة. بمعنى آخر إن عدم حصول الخليفة على دعم مؤيديه بيّن ظاهر.

هنالك روايات متعددة عن مدة غزو بغداد، فحين يروي ابن البوطي لنا أحداث الغزو يوما بيوم يقول: إن مدة الغزو كانت أربعين يوما، (ابن الفوطي، ٩٣٢م) يروي ابن العبري بأن المدة كانت سبعة أيام، (ابن العبري ٩٧٨م) وقال آخرون إنها كانت سبعة عشر يوما، (فضل الله، د.ت؛ غروست، ٩٨٠م) ولا غرابة في فهم الاختلاف حول مدة الغزو، بالحرب التي بدأت في الثاني والعشرين من كانون الثاني (الدوري، ٩٩٤م) والتي انتهت بمقتل أو استسلام جنود الخليفة في الخامس أو السادس من شباط، ولم يروا أية اشتباكات حتى مقتل الخليفة في العشرين من شباط، (ابن الفوطي، ٩٣٢م؛ فضل الله، د.ت؛ ابن كثير، د.ت) وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المؤرخين قد اعتمدوا مقتل الخليفة كتاريخ لانتهاء الحرب. أمّا البقية فيفهم أنهم قد عدوا أيام الاشتباكات والمقاتلة، وعلى هذا فإنهم قدروا أيام الغزو بسبعة أيام أو سبعة عشر يوما.

إن جميع المؤرخين ولاسيما من عاصروا هذا الغزو متفقين حصول القتل والسلب، و حاول بعض المؤرخين أن يكونوا محايدين في نقل الأحداث، هنالك مؤرخون نقلوا الروايات بشكل عاطفي مفرط. إن ادعاء عدم وقوع مقتلة وتخريب في معركة حصلت وجهاً لوجه في القرن الثالث عشر ميلادي ليس أخرى بالقبول من الروايات المليئة بالمبالغات حول نتائج تلك الحروب. إن الإبهام الذي نروم توضيحه هنا هو تثبيت الغاية الأصلية، وإحصائيات هذا الغزو، وإظهار التضاد الموجود في روايات هذه الحادثة.

تخبرنا بعض كتب التاريخ أن جيش هولوكو دمر كل ما جاء أمامه، فقد ذبح الملايين من دون أن يميز بين الأطفال أو كبار السن، حتى الأشخاص الذين لجأوا إلى بيوتهم فقد فتحت أبوابهم أو أحرقت وقتلوا في بيوتهم، وإن عدداً قليلاً من الناس بقوا أحياء في بغداد. (ابن الفوطي، ١٩٣٢؛ الذهبي، ١٩٩٩م؛ ابن كثير، د.ت؛ ابن الأثير، ١٩٨٦م) بعض تلك المصادر اختلفت في عدد القتلى واستعملوا عنصر المبالغة، إذ ذكر ابن الفوطي والذهبي (المتوفى ١٣٤٧/٧٤٨م) أن ثمانمائة ألف شخص قد قتلوا، (ابن الفوطي، ١٩٣٢؛ الذهبي، ١٩٩٩م) في حين قدّم ابن كثير تغطية أوسع للخلافات في كتابه، وروى أن عدد القتلى بلغ ثمانمائة ألف أو مليوناً وثمانمائة ألف أو مليونين، (ابن كثير، د.ت) وأبو الفداء ذكر أن هناك اختلافاً في عدد القتلى، وإنه لا يمكن إعطاء رقم واضح واستعمل كلمة "الله أعلم" في نهاية كلامه. (أبو الفداء، ١٩٩٧م) هنالك صعوبة بالغة في فهم الفارق الكبير بين الأرقام. على سبيل المثال فالمؤرخ المعاصر العربي يقدر عدد القتلى بثمانين ألفاً. (العريني،

١٩٦٢م)، وقد يكون سبب هذا الفارق في المبالغة في كثرة عدد القتلى لفت النظر. الذهبي وفي روايته لعدد قتلى هولاء قال: إنه هنالك روايات تقدر عدد القتلى بثمانية عشر ألف قتيل، ولكنه يرجح أن العدد وصل إلى ثمانمائة ألف. (الذهبي، ١٩٩٩م) قد يكون عدد القتلى أكثر من عشرات الآلاف، لكن ادعاء مقتل ملايين الناس على يد جيش قوامه عشرة آلاف أمر يدعو للنظر.

قال القزاز: إن هولاء عامل حتى ابن الخليفة الأكبر بشكل جيد للغاية، وأرسله إلى أذربيجان مع القادة، ولكن في النهاية قتله بسبب المخاوف من أن يقوم هذا الأخير بحشد قوة من المسلمين تناصره ضد المغول. (القزاز، ١٩٧٠م) كما روى بعض المؤرخين، ولاسيما الذهبي، أن هولاء رغب بشدة أن يزوج ابنته للأمير أبي بكر، لكن رغبته هذه جوبهت برفض شديد. (الذهبي، ١٩٩٩م) وإن إبقاء أصغر أولاد الخليفة واسمه مبارك، وبناته فاطمة وخديجة ومريم على قيد الحياة وعدم قتلهم، (ابن الفوطي، ١٩٣٢م؛ القزاز، ١٩٧٠م) يعد دليلاً آخر على أن القول بأن الجميع قد قتلوا من دون تمييز بين صغير وكبير أمر مبالغ فيه؛ لأن نسل الخليفة هم الذين يُخشى من تشكيلهم خطراً في المستقبل على المغول، وإبقاؤهم على قيد الحياة من هذه الزاوية خطورة على المغول، واحدة من الدلائل المهمة على أن هدف هولاء الرئيس لم يكن تدمير الثقافة الإسلامية ومثلها، وهي أنه وبعد قتل الخليفة، قيامه بتعيين الموظفين في جميع وحدات الدولة، وجلبهم من العرب المسلمين، فعلى سبيل المثال ابن العلقمي (١٢٥٨/٦٥٦م) تم تعيينه في كرسي الوزارة، وعلى الديوان فخر الدين الدمغاني، وعلى الشرطة بهادر شحنة، وعلى ولاية شرقي بغداد نجم الدين أبو جعفر، وقاضي القضاة نظام الدين عبد المؤمن بندجاني، ووظيفة الحاجب أُسندت لتاج الدين علي بن الدوامي. (فضل الله، د.ت) وهنالك الكثير من الأسماء العلمية والبيروقراطية التي لا نجد داعياً لسردها كلها حافظت على وظائفها المرموقة. (الأعسم، ١٩٩٩م؛ القزاز، ١٩٧٠م)

أليس من التضاد أن نجد الحفاظ على المؤسسات والسماح للعاملين فيها بممارسة أعمالهم من قبل هولاء الذي زُعم أنه جاء بنية تدمير بغداد بالكامل؟! ولو أننا اعتبرنا أن هذه التصرفات من هولاء ما هي إلا سياسة لإظهار الوجه الحسن للجمهور وحشد المؤيدين، فحينها يخطر بالبال سؤال وهو لمن يُظهر هولاء هذا الوجه الحسن في بلدة قُتل مئات الآلاف بل الملايين من أهلها ودمّرت مكنتاتها ومراكز العلم فيها ولم يبق فيها حجرٌ فوق حجر؟

قضية أخرى مليئة بالخلاف والتناقضات ألا وهي طريقة مقتل الخليفة المستعصم بالله، إنه أمرٌ معقد وطويل، وهو خارج نطاق بحثنا، ومع ذلك فإن رواية جريمة القتل التي وقعت أمام المئات والآلاف التي يتم قبولها بالإجماع، مع متغيرات مختلفة للغاية، ستوافر فرصة

لمقارنة الروايات حول تدمير المكتبات والكتب التي لم تثبت أصالتها من حيث إن يتم التعامل معها بحذر أكبر نظرًا للحاجة الماسة لذلك. فهناك عدد من الآراء المختلفة حول مقتل المستعصم، من تعرضه للدهس تحت أقدام الجنود إلى وفاته بالغرق في نهر دجلة بعد وضعه في كيس. (أبو الفداء، ١٩٩٧م؛ اليونيني، ١٩٥٤م) وفي بحث للمؤرخ بويل جمعت هذه التعبيرات المختلفة في المصادر والأجزاء المتناثرة من المعلومات (بويل، د.تم) والمقارنة بين مدة ما قبل الحرب ومدة ما بعد الحرب ستزودنا بمعلومات دقيقة، وإن لم تكن مائة بالمائة، فمن أجل فهم أفضل لمدى تدمير بغداد بشكل عام، فحقيقة التدمير الذي سنحاول رسم حدوده بشكل عام، سيساعدنا في توضيح وضع المكتبة.

ثالثًا: المناطق السكنية داخل سور المدينة قبل الهجوم:

سوق الثلاثاء، حي باب حي الأزج، حي المأمونية، سوق ابن رزين، حي المقتدية، حي المختارة، سوق الظفر، سوق القاضي، سوق أبي شحم، حي كبيبات، حي البصلية، حي قطيعة العجم، سوق دار الرقيق، نهر المعلا، حي الجعفرية، قرية، وحلبة. (حسبك، ١٩٦٨م) إن صاحب كتاب مرصد الاطلاع تناول قضية الأحياء الشرقية واحدًا تلو الآخر، حيث تواجد هناك بعد الغزو مباشرة. وبين حالها فهي قائمة أم مدمرة؟، المعلومات التي قدمها صاحب الكتاب لا تقدر بثمن، وتكشف أن الأحياء بقيت في الغالب على حالها ولم تدمر، وإن عددًا صغيرًا من المباني قد هُدم. وهاهو ينقل المعلومات الآتية حول حالة الأحياء: "كان سوق الثلاثاء من أكثر الأسواق تنظيمًا في بغداد. (البغدادي، ١٩٩٢م) حي المأمونية هو حي طويل عريض وكبير بين باب الأزج ونهر المعلا. (البغدادي، ١٩٩٢م) وباب الأزج كان حيًا كبيرًا فيه أسواق كثيرة في شرقي بغداد، (البغدادي، ١٩٩٢م) وقد أطلق البغداديون على سوق ابن رزين لقب "البستان" وكان السوق الأقرب إلى مركز المدينة. (البغدادي، ١٩٩٢م)

إن الأحياء التي تحدثنا عن وجودها قبل الغزو، نجد أن الكاتب يستمر بوصفها بالروعة والجمالية. (البغدادي، ١٩٩٢م) وعند الحديث عن قصور الخلافة ذُكر أن بعض القصور كقصر ميدان خالص ودار سوق التمر ودار الشجرة ودار المربع بقيت على حالها من دون أي تدمير، (البغدادي، ١٩٩٢م) بيد أنه ذُكر أنه تمّ تدمير القصر المسمّى درع الرياحاني فقط، وأنه لم يسلم منه سوى حديقته". (البغدادي، ١٩٩٢؛ حسبك، ١٩٦٨م) تصريحات الكاتب التي نناقشها تؤكد أنه باستثناء عدد قليل من عمليات التدمير التي هي نتائج حتمية للحرب، فلم تتم عبر أعمال التدمير والحرق المتعمدة. كما نقل لنا ابن الفوطي - وهو شاهد عيان معاصر آخر - أن عددا من المباني مثل: قصر الحياة، ومنزل الوزير دويدار، والمدرسة النظامية، والمدرسة المستنصرية حيث توجد المكتبة بقيت محافظة على نفسها، بيد

أن جامع الخليفة تضرر جزئياً، كما ينقل لنا أنه تم ترميمه بعد ذلك. (ابن الفوطي، ١٩٣٢م) قام الرحالة الشهير ابن بطوطة (ت ٧٧٩/٣٧٧م) بزيارة بغداد في حوالي عام ٧٢٧هـ/٣٢٦م ونقل انطباعاته بكل تجرد في كتابه المسمى تحفة النظار، ذكر ابن بطوطة أن هناك جسرين منفصلين على نهر دجلة، وإن الناس يأتون ويذهبون باستمرار إلى جانبي بغداد، وإن سوق الثلاثاء الحاوي على جميع الصناعات في غاية الانتظام. وكانت المدرسة النظامية تقع في وسط المدينة، وكانت المدرسة المستنصرية في آخر المدينة، وكان هناك أيضاً ثلاثة مساجد مختلفة للجمعة أحدها كان مسجد الخليفة الذي كان ملاصقاً للقصر. أعرب ابن بطوطة عن إعجابه بأن بعض أجزاء مسجد الخليفة، التي يقول المؤرخون إنها دُمّرت، كانت بحاجة إلى ترميم، لكنها حافظت على روعته الأخاذة. يخبرنا ابن بطوطة أن قبور جميع الخلفاء العباسيين، بما في ذلك الخليفة المستعصم، كانت موجودة على حالها، داحضاً بذلك زعم من قال بأن قبور الصحابة قد دُمّرت أيضاً. (ابن بطوطة، ١٩٨٥م)

يحصي حمد الله المستوفي القزويني (ت ٧٤٠هـ/٣٤٠م) الذي جاء إلى بغداد بعد ابن بطوطة بثلاث عشرة سنة وعاش هناك مدة أسماء عدد من المباني المهمة التي وصفها بأنها أجمل الأماكن في المدينة، تنصدر المدارس النظامية والمستنصرية هذه المباني، كما أكد وجود قبور الخلفاء، (حسبك، ١٩٦٨م؛ أوزدمير، ١٩٩٧م) وأشار ابن فضل الله العمري (٧٤٩/٣٤٨م) إلى أن عدداً من المباني الرائعة مثل قصور الخليفة والمدارس تمتد على طول نهر دجلة. (القلقشندي، ١٩٨٧م)

يتضح لنا من تعابير الرحالة الذين نعتقد أنهم الأبعد عن الانحياز السياسي والديني وغيرها في نقل المعلومات، أن الادعاء بأن جميع الأماكن قد احترقت ودمرت نتيجة هجوم المغول بعيد عن الواقع. كما نعتقد أن الأجزاء المدمرة جزئياً يمكن إصلاحها في وقت قصير. (الدوري، ١٩٩٤م) كما نعتقد أنه يجب أن نسأل أنفسنا السؤال الذي يقده الأذهان: هل الدمار الحالي - على الرغم من أنه ليس بمستوى متقدم - كله من آثار القوات المغولية؟ أم من الممكن أن تكون هناك قوى فاعلة بناء على عوامل طبيعية أو بشرية يمكن أن تتسبب بالضرر لبغداد في السنوات التي سبقت الهجوم؟

يذكر الرحالة ابن جبیر (٦١٤هـ/١٢١٧م)، الذي سافر لمدة ثلاث سنوات منذ عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، أنه عندما وصل بغداد، كان جزء من نهر دجلة على الجانب الغربي مدمراً تماماً، في حين كان هذا المكان مزدهراً في السابق، إذ يلفت الانتباه إلى أن الجزء الشرقي على الرغم من بنائه حديثاً تعرّض للدمار نتيجة الغزو. ابن جبیر، ١٩٥٩م ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، صاحب معجم البلدان، يذكر أيضاً الآثار الحالية لبعض الأماكن في بغداد. كانت المنطقة الواقعة بين الرصافة ونهر المعلا، والتي تسمى المحرم، المقر الرئيس

للسلاطين البويهيين والسلاجقة، وإن الناصر لدين الله الذي تولى الخلافة في الأعوام (٥٧٥-٦٢٢ هـ - ١١٨٠-١٢٢٥ م) قد هدم هذا المكان بتاريخ (٥٨٧ / هـ - ١١٩١ م). (الحموي، ١٩٩٣ م) بالمقابل ينقل ابن بطوطة لنا أنه تم تدمير باب التبن، كذلك مقبرة موسى الكاظم للشهداء المجاورة له التي فيها قبر عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ - ٨٥٦ م) والذي يُزعم أنه دُمِرَ في أثناء الغزو المغولي، (الحموي، ١٩٩٣ م) كذلك جادة دار الرقيق المشهورة. (الحموي، ١٩٩٣ م)

في هذه المدة التي احتضنت فيها بغداد عناصر مختلفة مثل: السنة والشيعة واليهود والنصارى، كانت موطناً للصراعات والنزاعات على مستوى أعلى بكثير من هجوم المغول، (العريني، ١٩٦٢ م) ومن خلال نقولات ابن جبير وياقوت الحموي نفهم أن مدينة بغداد قد وصلت لهذه الحال بسبب الحروب الأهلية، إذ تؤكد الحادثة التي ذكرها عنها أبو الفداء هذه المزاعم قبل غزو المغول بسنة واحدة (١٢٥٧/٦٥٥ م) نتيجة الفتنة المستمرة بين الشيعة والسنة قام الابن الأكبر للخليفة أبو بكر وركن الدين الدويدار، بإعطاء الأوامر للجند بتدمير الكرخ، وتعرضت النساء للاغتصاب، وتم تدمير البيوت المجاورة لبيت الوزير ابن العلقمي على الرغم من الشعور السائد ببراءة الشيعة من خلال هذه الروايات، فإن هذا التخريب ما هو إلا تجليات للاتفاق الذي حصل بين الوزير ابن العلقمي الراضي وهولاكو. (أبو الفداء، ١٩٩٧ م؛ ابن كثير، د.ت؛ اليونيني، ١٩٥٤ م؛ العريني، ١٩٦٢ م؛ الذهبي، ١٩٩٩ م؛ الدوري، ١٩٩٤ م) فضلاً عن الاضطرابات الداخلية، ومن المفهوم أن الكوارث الطبيعية أضرت أيضاً ببعض مناطق بغداد، حيث غمرت المياه بغداد كلها تقريباً نتيجة فيضان نهر دجلة عام ٦٥٤ هـ/١٢٥٥ م.

يقول ابن الفوطي، الذي عايش كارثة الفيضان هذه، أن الناس كانوا في حالة صعبة لدرجة أنهم اضطروا إلى التنقل عبر القوارب داخل المدينة، وامتلاً منزل الخليفة بالمياه بالكامل، كما غمرت المياه ديوان زمام، أحد المراكز المهمة، أمّا في المدرسة النظامية فزاد ارتفاع المياه إلى أربعة أذرع، حيث كان الناس يؤدون الصلاة في المدرسة المستنصرية، وهذا يدل على أن المستنصرية أقيمت في منطقة أعلى من باقي الأماكن، (ابن الفوطي، ١٩٣٢ م؛ الدوري، ١٩٩٤ م) ولم يقدم ابن الفوطي معلومات عن وضع المكتبة في نهاية كارثة الفيضان هذه. ومن المفهوم أن كارثة السيول أضرت ببغداد ولو جزئياً، وعلى الرغم من أن القزاز ذكر أنّ ١٢٣٧٠ منزلاً كانت في حالة متهالكة، وإن الخليفة لم يتخذ أية خطوات في أمر الإعمار، فإننا نعتقد أن هذا الرقم يجب أن يؤخذ بحذر! (القزاز، ١٩٧٠ م) على الرغم من معرفتنا أن مدينة بغداد قبل الغزو المغولي لم تكن مدينة كاملة متكاملة من

كل الجهات، فإن تحميل مسؤولية الخراب القبلي والبعدي كله للمغول وحكامهم يدل على وجود جانبٍ محترف.

بعد عودته إلى همدان كلف هولأكو مجموعة من ٣٠٠٠ شخص لإعادة إعمار بغداد بعد انتهاء الحرب مباشرة، وذلك في بادرة بدت وكأنها رغبة في الإصلاح ورغبة في طلب العفو عن مقتل الأبرياء. قام عماد الدين عمر القزويني (١٣٠٠ م - ٦٩٩ هـ) الذي عُيّن مساعدًا للأمير برفقة الموظفين تحت إمرته بإصلاح المساجد والمدارس الدينية في وقت قصير، ومن المفهوم أن القزويني الذي كان في منصبه منذ أقل من عام حوّل مدينة الحرب إلى مدينة السلام من خلال حماية أهل الفقه والعلماء والصوفية. (فضل الله، د.ت؛ شبر، ٢٠٠١م) إن الاهتمام الذي ظهر تجاه المدينة وسكانها جعل الناس في غاية الرضى والسرور حتى أن شمس الدين الكوفي الهاشمي الذي رثى بغداد بعد الغزو المغولي بقصيدته الشهيرة المسماة في رثاء بغداد، قدم عماد الدين رمزا للسلام والرفاهية في قصيدة أخرى، إذ بدأ القصيدة الطويلة جدًا بالكلمات التالية:

"يا ذا العلاء عماد الدين يا ملكا ... لعدله سيرة تسمو على السير". (ابن الفوطي، د.ت)

وبسبب اكتمال إصلاح المدينة من سلفه، قام علاء الدين الجويني الذي عُيّن مكان عماد الدين (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) بتنفيذ إصلاحات جديدة، حيث تم بناء مؤسسات تعليمية جديدة، وفتح قناة من نهر الفرات من أجل تدفق المياه إلى الكوفة، كما تم تشجيع المؤلفين وحركة التأليف. (شبر، ٢٠٠١م)

رابعًا: النتيجة

من المفهوم في ضوء النتائج والتحليلات أن التاريخ وحده لا يملك القوة لتمييز الصواب والخطأ بعضهما عن بعض. علاوة على ذلك فإنه لا يمكننا قبول كل الروايات الواردة على أنها حقائق بالمطلق، كما لا يمكننا جعل كل رواية من المسلمات، إن القلق والمخاوف التي حاولنا شرحها من البداية جعلت تدفق التاريخ ليس كما يجب أن يكون، ولكن ما أُريد له أن يكون. ومع ذلك فإن التاريخ بغنى تركته وبفضل المؤرخين الحياديين بقي عرضة للاعتراف بالحقيقة وجهاً لوجه.

إن الجهد المبذول للتحقيق في الجدل الحاد حول حرق مكتبة بغداد والطرائق التي تم بها إتلاف الكتب، جعلنا نناقش ما إذا كان هذا الحدث قد حدث بالفعل أم لا؟ بعبارة أخرى، وعبر هذه الدراسة بدل التحقق من الأحداث التاريخية المتخيلة، ظهرت الحقيقة التاريخية إلى الواجهة. وقبل التطرق للروايات السلبية من زاوية المنطق، أي قبل النقد الداخلي لتلك الروايات، حاولنا أن نتناول وبكل تجرد معرفة مقدار العنف والدمار ومصير المكتبة والكتب، من خلال الانقطاع الحاصل بين الروايات ومعرفة حجم الدمار قبل الغزو وبعده، وإدراك

منظور القوات الغازية إلى القيم العلمية والثقافية، والمقارنات بين ما قبل الغزو وما بعده، وبعد هذه الحادثة الكارثية التي تشبه الثوران البركاني، كانت الديناميكيات المهيمنة في بغداد، والتي تجسد جميع الأطياف، والجهود المبذولة لتعطيل المشاعر الخفية في جميع القطاعات، العامل الأكثر أهمية الذي يجعل من الصعب فهم حقيقة الحدث التاريخي.

كنتيجة طبيعية خاصة بحسب المؤرخين المسيحيين، فبعد ٥١٥ سنة من إنشاء بغداد، تجاوزوا وللمرة الأولى مكانة الذمي وصرخوا بقدر استطاعتهم على الكراهية والبغضاء التي وطنوها في قلوبهم. على سبيل المثال، يستعمل الملك البيزنطي هذه العبارة في الرسالة التي أرسلها إلى هولاءكو وزوجته: "أعدَّ الله هذين (هولاءكو وطفز خاتونم) للانتقام للمسيحيين". (العريني، ١٩٦٢م)

ومرة أخرى، الملك الأرمني هيتوم / هايتون، الذي اشتهر بمعاداة المسلمين وألف كتابًا في تاريخ المشرق، (٦٥٣-٦٥٦م) / (١٢٥٤-١٢٥٧م)، تعاون مع المغول؛ لذلك جاء إلى الأراضي التي احتلها المغول، ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من أنه لم يجد الفرصة لتحقيق ما كان يتمناه، ولاسيما في مسألة قتل الخليفة، فقد صرح باستعمال قلمه في رواياته التاريخية بأن المغول قد قاموا بالمهمة عنه، وهو ما لم يستطع فعله بيده. (الغامدي، ١٩٩١م) من جهة أخرى فإن المؤرخ الأرمني المشهور كانت زاغلي كيراغوس / كيراكوس (١٢٠١م/١٢٧٢م) يستعمل عبارات قاسية جدًا في احتقار المسلمين، نعتقد أن العبارات الآتية التي سنستشهد بها من ملاحظاته الخاصة هي مثال جيد للتأريخ الذاتي: "ابتلعت الإمبراطورية (العباسية) العالم كله مثل علكة لا تشبع، ثم أعادت كل شيء حصلت عليه، ودفعت ثمن الدم الذي أزهرته والجرائم التي ارتكبتها، كان الظلم قد طمَّ وعمَّ، استمر اضطهاد المسلمين لستمائة وسبعة وأربعين سنة.

المؤرخ الذي يمتلك هذه السطور التي تشبه أقوال القاضي وليس المؤرخ، لا يمكن عده محايدًا في أثناء الاحتلال. حتى المؤرخ المعاصر غروست، الذي استفدنا من مؤلفه الثمين، أهان إعلان الحكومات المسلمة الأخرى طاعتها لهولاءكو خان بعد سقوط بغداد. لعل هذا الموقف أفقد المترجم صبره؛ لأنه شعر بالحاجة إلى كتابة حاشية تحت هذه العبارات والتنبيه عليها. (غروست، ١٩٨٠م)

يمكننا بسهولة القول: إن المبالغات في صرخات الفرحة هذه، قابلها رد فعل عاطفي للمؤرخين المسلمين مع تأثير الهذيان الذي وقعوا فيه بتدمير الخلافة الذي هو جزء من أسلوب حياتهم ومعتقداتهم الدينية، كان أصعب على المسلمين من التدمير الكامل لكثير من المدائن كبغداد وغيرها. لكن هذا الانهيار النفسي تجلّى في التعبير فقط من خلال تضخيم المواقف القاسية للخصم. وخير مثال على ذلك وجود العبارات الآتية في كتاب ابن الأثير:

"فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَيَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُدُوثِهَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا"، (ابن الأثير، ١٩٨٦م) كذلك ابن كثير يعبر عن حزنه بعبارات قاسية للغاية تجاه ابن العلقمي ولاعناً المغول والشيعية عموماً معتقداً قيام ابن العلقمي بالتحالف مع المغول. (ابن كثير، د.ت)

ليس من المناسب الاعتقاد بأن المؤرخين في كلا الطرفين كانوا محايدين في ظل بيئة شعروا فيها بأنهم تحت تأثير نفسي مؤلم. من حيث الحب والحزن. في رأينا هذا هو العامل الرئيس الذي تقوم عليه مثل هذه الآراء المتطرفة فيما يتعلق بتدمير بغداد. في هذا السياق، من الضروري تقييم سبب تدمير المكتبة نتيجة التحليل المقارن لجميع البيانات. من جهة نرى جماعة تتغنى بالبطولة أكثر من الجنود المغول، ومن جهة أخرى نرى قوماً لم يستطيعوا تقبل التصرفات الغوغائية من المغول تجاه الخلافة، تلك الخلافة التي انضوت تحتها القوات السلجوقية والبويهية وقدموا لها الاحترام والطاعة، كما في مثال المكتبة، إذ استعمل عدد من المؤرخين على الجانبين التاريخ وسيلة للدعاية بدلاً من الإعلام، ما تسبب في تشويه عدد من الأحداث أو المبالغة فيها حول هذا الغزو. وهكذا أصبح التاريخ الذي كان يجب أن يتواجد بموضوعية أسير مناهجهم النسبية.

المراجع والمصادر

١. ابن الأثير، ع (١٩٨٦م) الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية. ٣٥٨/١٢.
٢. الأسم، ع (١٩٩٩م) هل أئلف المغول حقاً مكتبة بغداد، مجلة العرب، العدد ٤٨٤ آذار ص ١٢٨، ١٢٩، ٢٩٩.
٣. أوز آيدن، ع (١٩٨٩م) ألموت، موسوعة الديانة التركية، اسطنبول: غ.م.، ٣٣٧-٣٣٦/١.
٤. أوزدمير، ح (١٩٩٧م) الغزو المغولي وانهيار الدولة العباسية، غزو جنكيز وهولاكو (٦١٦-٦٥٦م)، (١٢١٩-١٢٥٨م)، بحث دكتوراه، اسطنبول: غ.م. ص ٦٨، ١٦٥-١٦٩.
٥. بارتولد، و، (١٩٦٣م) "Djuwain_، Ef2, E.J. Brill, Leiden، ١٠٧٠-١٠٦٧/١.
٦. ابن بطوطة، م (١٩٨٥م) رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: نشر علي منتصر الكتاني ص ٢٤٢-246.
٧. البغدادي، ص (١٩٩٢م) مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت: غ.م. ٦٥/١، ٢٠٢، ٣٣٦، ٤١٧، ٨٩٨؛ ٥٠٦/٢، ٥٠٨؛ ٧٧٣/٣، ١٠٦٦، ١٠٧١، ١١٠١، ١١١٠، ١٢٢٢، ١٢٣٩، ١٤٠٦.
٨. بويل ج " Death of the Last Abbasid Caliph", Journal of Semitic Studies, vol.6, No: 2.
٩. ابن تغري بردي، ج (١٩٣٨م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: وزارة الثقافة، ٤٨/٧، ٥١.
١٠. توغان، أ (د.تم)، الموسوعة الإسلامية، غ.م.
١١. ابن جبير، م (١٩٥٩م)، رحلة ابن جبير، بيروت: دار بيروت للطباعة ص ٢٠٠، ٢٠١.
١٢. الجوزجاني، ع (د.تم) طبقات الناصري، ص ٣٣٣-٣٣٥.

١٣. جي إيفانز، ر (١٩٩٩م) الدفاع عن التاريخ، ترجمة ايغور كوجا باش اوغلو، أنقرة: غ.م. ص ١٠-١١
١٤. حسبك، ج (١٩٦٨م) العراق في عهد المغول الإيلخانيين، بغداد: غ.م. ص ٤٤-٥٥؛ ٦٠-٦٣.
١٥. حمّادي، م (د.تم) المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصادرها، مؤسسة الرسالة ص ٧٠، ١٠٠، ١٠٧، ١٤٢ وما بعدها.
١٦. الحموي، ي (١٩٩٣م) معجم البلدان، بيروت: غ.م. ٣٠٦/١؛ ٣٠٧/٣؛ ٧١/٥
١٧. الحنفي، ق (١٣٧٠ هم) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام في تاريخ مكة المشرفة، نشر محمد أمين الكتبي، مكة: غ.م. ص ٧، ٨، ١٦٣.
١٨. ابن خلدون، ع (١٩٩٩م) التاريخ، القاهرة: غ.م. ١١٠٥/٦-١١٠٦
١٩. داود القزاز، م (١٩٧٠م) الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، بغداد: غ.م.
٢٠. الدوري، ع (١٩٩٤م) بغداد، موسوعة الديانة التركية، ٤٣٢/٤
٢١. الذهبي، ش (١٩٩٩م) تاريخ الإسلام، بيروت: غ.م. ص ٣٤، ٣٦؛ ٤٨/٢٦٢
٢٢. زيدان، ج (١٩٦٧م) تاريخ أدب اللغة العربية، بيروت: غ.م. ٣٠٠/٣
٢٣. ابن الساعي، ع (١٩٣٤م) الجامع المختصر، العراق: نشر مصطفى جواد.
٢٤. ستوف، ف (١٩٩٥م) المؤسسات الاجتماعية عند المغول، أنقرة: مؤسسة التاريخ التركي، ص ١٨-٢٠.
٢٥. سعيد، ج (١٩٩٩م) الدولة الإسلامية في إيران، القاهرة: غ.م. ص ١٢١، ١٢٢
٢٦. السيوطي، ع (١٩٥٢م) تاريخ الخلفاء، مصر: غ.م. ص ٤٧١، ٤٧٣
٢٧. السيوطي، ع (د.تم) المزهري في علوم اللغة وأنواعه، مصر: دار إحياء الكتب العربية ص ٩٧
٢٨. شبر، س (٢٠٠١م) خلفاء بني العباس والمغول (إسقاط بغداد من وجهة نظر جديدة)، بيروت: غ.م. ص ٥٧٥، ٥٧٧
٢٩. الصفدي، ص (١٩٦٢م) الوافي بالوفيات، نشر: H. Ritter, Wiesbaden؛ ١٧٩/١.
٣٠. الصفدي، ص (١٩٩٨م) عيون الأثر في أعيان العصر وأعوان النصر، بيروت: غ.م. ١٢٥/٣.
٣١. الصياد، س (١٩٦٧م) مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، القاهرة: غ.م. ص ٤٤-٤٥.
٣٢. الطباع، ع (د.تم) إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ٢٤٤/١.
٣٣. ابن الطقطقي، م (١٩٦٦م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت: دار صادر ص ٣٣٧، ٣٣٨.
٣٤. طه بدر، م (١٩٩٩م) محنة الإسلام الكبرى وزوال الخلافة العباسية من بغداد على يدي المغول، مصر: غ.م. ص ١٨٢، ١٨٣، ١٩٥ وما بعدها.
٣٥. عباس، إ (د.تم)، تاريخ المغول، ترجمة عبد الرحمن علوي، ص 207٢٠٢-
٣٦. عبد الرحيم، ر (٢٠٠١م) أثر الغزو المغولي في الثقافة العربية في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، عمان: غير مطبوعة ص ٩، ١٠.
٣٧. ابن العبري، ي (١٩٧٨م) تاريخ مختصر الدول، بيروت: غ.م. ص ٢٧٢
٣٨. العريني، س (١٩٦٢م) المغول، بيروت: غ.م. ص ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١

٣٩. الغامدي، م (١٩٩١م) العراق والمغول، دار النهضة الإسلامية ص ٢٧٩
٤٠. غروست، ر (١٩٨٠م) امبراطورية السهوب، ترجمة محمد رشاد أوزمان، اسطنبول: غ.م. ٣٣٤-٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٩.
٤١. أبو الفداء، إ، (١٩٩٧م) مختصر تاريخ البشر، بيروت: نشر محمود ديوب ٣٠٢/٢.
٤٢. فضل الله، ر (د.تم) جامع التواريخ (تاريخ المغول)، ترجمة موسى هندايوي، فؤاد عبد المعطي السيد، مصر: دار إحياء الكتب العربية، مجلد ٢، ص ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٣-٣٠٤.
٤٣. ابن الفوطي، ع (١٩٣٢م) الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد: نشر مصطفى جواد، ص ٢١٧، ٢١٩، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٩٠.
٤٤. ابن الفوطي، ع (د.تم) مجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب، تحقيق: مصطفى جواد، ١٧/١-٢٨؛ ١٢٦.
٤٥. القران، م (١٩٧٠م) الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، بغداد ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١٠٩، ١٢٠، ١٥٧.
٤٦. القلقشندي، أ (١٩٨٧م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت: غ.م. ١/٥٣٧؛ ٤/٣٣١
٤٧. كاربيني، ج (٢٠٠٠م) تاريخ المغول ومذكرات السفر، ترجمة ارغين آيان، طرابزون: غ.م. ص ٩٣-١٠٣
٤٨. كتاجي، ز (٢٠٠٠م) الإسلام عند المغول، قونيا: غ.م. ص ١٠٢، ١٠٤.
٤٩. ابن كثير، ع (د.تم)، البداية والنهاية، بيروت: غ.م. ١٣/٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٩٩
٥٠. كرد علي، م (١٩٣٤م) الإسلام والحضارات العربية، القاهرة: غ.م. ص ٤١-٥٢.
٥١. مؤلف مجهول، (١٩٩٥م) التاريخ السري للمغول، ترجمة أحمد تميم، أنقرة: مؤسسة التاريخ التركي ص ٧.
٥٢. المشهداني، م (١٩٨٨م) دور الطوسي في غزو المغول لبغداد، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٣٧، بغداد: غ.م. ص ١٣١-١٣٩.
٥٣. المشهداني، م (٢٠٠٠م) في محكمة التاريخ ابن العلقمي والطوسي، دمشق: غ.م.
٥٤. معروف، ن (١٩٦٩م) أصالة الحضارة العربية، بغداد: غ.م. ص ٣٨٥ وما بعدها.
٥٥. المقرئزي، ت (١٩٩٧م) السلوك، بيروت: نشر محمد عبد القادر عطا ١/٥١٠
٥٦. منصور، م (١٩٩٥م) هل أحرق المسلمون مكتبة الإسكندرية؟، أنقرة: غ.م. ص ٤١، ٤٢.
٥٧. ناجي، م (١٩٦٩م) أصالة الحضارة العربية، بغداد: غ.م.
٥٨. و. بارتولد، E.J. Brill, Leiden, "Djuwain_ ", Ef2, (١٩٦٣م)، ١، ١٠٦٧-١٠٧٠.
٥٩. واكيم، س (د.تم) امبراطورية علي سهوات الجياد، بيروت: دار الكاتب العربي.
٦٠. اليونيني، ق (١٩٥٤م) ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد: غ.م. ١/٨٥، ٨٧
61. Mongols, BSOS, A Qaṣīda on the Destruction of Baghdād (1933), Vol. VII, Part I, pp41-48.